مفهوم الصورة في الشعر

obeikandl.com

obeikandl.com

مصطلح الصورة من المصطلحات الحديثة التي تداولها النقاد والدارسون ، حيث كان هذا المصطلح يندرج تحت مسمى آخر ، فسماها الجرجاني الاستعارة أو التشبيه ، كما سماها غيره من علماء البلاغة : الجاحظ ، وابن المعتز وابن طباطبا وغيره .

والصورة بمفهومها القديم ، وما درج العرف عليه وليدة الخيال ، وهي نقل واستدعاء من عالم الخيال لتوليد ما مر بالإنسان من مرئيات سابقة ، أو توليد صور مستمدة من ابتكار الشاعر .

ولأن الكلاسيكيين يؤمنون بأن العقل هو عالم الحقائق الواضحة فهم يقتصدون في الصور ويكتفون بما يمثل الواقع ويؤدي إلى الفكرة .

على حين اهتم الرومانيتكيون بالخيال ، وجعلوا الصور والتخييل في منزلة أعلى من لغة العقل لإيمانهم الوثيق يدور الصورة في الكشف عن خفايا النفس و مشاعر الإنسان ،وما يدور في داخله ، وهذا يدفعنا للقول بأن مفهوم الصورة يختلف هنا – عند الروما نتيكيين – فهي تقوم بدور الكشف عن العالم الداخلي للشاعر ، بينما عند الكلاسيكيين تقوم

بتصوير الواقع ، في حين نجد المذهب الرمزى ينادى بتراسل الحواس ، فالصوت له لون ، واللون مشموم وهكذا الانفعالات التي تعكسها الحواس قد تتشابه من حيث وقعها النفسي .

فقد يترك الصوت آثرًا شبيهًا بذلك الذي تركه اللون ، أو تخلفه الرائحة . ومن ثم يصبح طبيعيًا أن تتبادل المحسوسات ، فتوصف معطيات حاسة بأوصاف

حاسة أخرى . بل قد يضفى الشاعر خصائص الماديات على المعنويات . أو يخلع سمات المعنويات على الماديات . [١]

من هنا حدث الاختلاف حول مفهوم الصورة : الصورة التي تمثل الواقع وتتسم بالعقلانية عند الكلاسيكيين ، والصورة التي تبرز الجانب الداخلي للشاعر وتجلى مشاعره ودخائل نفسه أو ما نسميه الذاتية عند الرومانتيكيين ، وصولا إلى الرمزية التي تعنى بالصورة التجريدية التشخيصية القائمة عل تراسل الحواس .

وفي بحث طيب عن الصورة الفنية للدكتور / عبد الفتاح عثمان بين فيه أنواع الصورة الفنية متخذًا شعر شوقي نموذجًا توصل من خلاله إلى أنواع الصور وجعل منها :

١- الصورة التشخيصية :

وهي التي يستخدمها الشعراء في تشخيص مظاهر الطبيعة الصامتة، والمتحركة بحيث تضحى الطبيعة شخوصًا عاقلة تتفاعل وتتجاوب وتستشعر وجود الإنسان ، وتسمع نبض عواطفه ويمثل الدكتور عثمان لذلك بقول شوقي :

ولقد تمر على الغدير تخاله والنبت مرآة زهت بإطار
حلو التسلسل موجه وخريره كأنامل مرت على أوتار

٢- الصورة التجريدية :

ويعرفها الدكتور بأنها الصورة التي يستخدمها الشاعر حين يريد تشبيه المحسوس بالمعقول ، أو المقول بالمعقول ، فالشيء المادي المحسوس قد يقارن بفكرة ذهنية مجردة كما أن الفكرة الذهنية المجردة قد تقارن بفكرة أخرى أكثر منها وضوحًا ويمثل لذلك بقول الشاعر شوقي في مسرحية " مصرع كليوباترا " :-

يا موت مل بالشراع وأجمل جريح الحياة

١- دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده ، غنيمي هلال ص ٦٥ دار نهضة مصر .

سـر بـالقلوع الـسراع إلـى شـطوط النجـاة
شـراعك الفـضى فـي لجـه التبـري
كـالحلم فـي الغمـض يجـري ولا يجـرى

٢- الصورة الوصفية التي أسماها (البلاستيكية)

ويعرفها بأنها الصورة المراد بها مطلق التجسيم والتكبير بصرف النظر عن ارتباطها بالوجدان ، أو رمزها لحالات نفسية خاصة ، ومجال عمل هذه الصورة في المحسوسات حين يلحق الأقل بالأكثر والأخفى بالأظهر ويمثل لذلك بقول شوقي يصف سفينة في عرض البحر :

وجبـالاً موائجًـا فـي جبـال تتـدجى كأنهـا الظلمـاء
ودويـا كمـا تأهبـت الخيـ ـل وهاجت حماتهـا الهيجـاء
لجـة عنـد لجـة أخـرى كهضاب ماجـت بهـا البيـداء

٤- الصورة الدرامية :

وهي الصورة التي تحفل بالحركة والتوتر والنمو فتتدافع الأحداث ، وتنمو المواقف وتتابع المشاهد في وحدة نامية متآزرة ويمثل ذلك بقول شوقي يصف مهرجان النيل والاحتفال بإلقاء فتاة جميلة في خضمه ، وهي التي يطلق عليها عروس النيل وسط مظاهر الحفاوة والتكريم يقول :

في كـل عـام درة تلقـى بـلا ثمن إليـك وحـرة لا تـصدق
زفت إلى ملـك الملـوك يحثهـا دين ويـدفعها هـوى وتـشوق
في مهرجان هـزت الـدنيا بـه أعطافها واختال فيـه المـشرق
ألقـت إليـك بنفـسها ونفيـسها وأتتـك شـيقة حواهـا شـيق
خلعت عليك حياءهـا وحياتهـا أ أعز من هذين شـيء ينفـق ؟

هذا التصنيف فضلاً عما فيه من دقة يبرز خصوصية شوقي وشاعريته الدفاقة [1] ، ويبقى في مبحث الصورة متسع للتصنيف بوجه عام ، والواضح أن الصورة تنحصر في نوعين :

أ- الصورة الجزئية .

ب- الصورة الكلية .

ويندرج تحت الصورة الجزئية أنواع منها :

١- الصورة الممتدة :

وهي أن يقصد الشاعر إلى امتداد الصورة ، فيجعل للمشبه الواحدة أكثر من مشبه به بقصد تجليه المشبه وإبرازه ففي قول الشاعر[٢] :

والأفــق معتكــر قــريح جفنــه يغضي على الغمرات و الأقــذاء

نجد أن الأفق مشبه فلم يكتف الشاعر بجعله معتكرًا بل مد الصورة فقال : والأفق قريح جفنه ، ومد الصورة أكثر فقال والأفق يغضى على الغمرات والأقذاء ولنا أن نتبين هذه الصورة من خلال الشكل التالي :

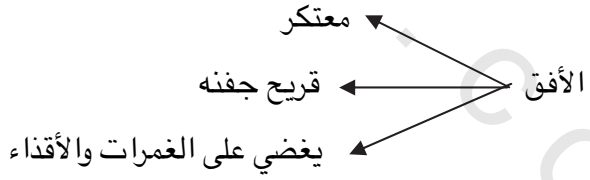

١- راجع مجلة فصول ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، الصورة الفنية في شعر شوقي الغنائي ، د . عبد الفتاح عثمان ص ١٤٤ وما بعدها .

٢- ديوان خليل مطران ، قصيدة " المساء " .

obeikandl.com

وتبدو الصورة الممتدة – أيضًا – في قول الشاعر :

وخواطري تبدو تجاه نــواظري كلمى كدامية السحاب إزائــي[1]

هنــا امتــداد للــصورة (فــالخواطر كلمــى) اســتعارة مكنيــة ، والخــواطر كالسحاب الدامي (تشبيه) يبرز الأمتداد في الصورة هذا الشكل :

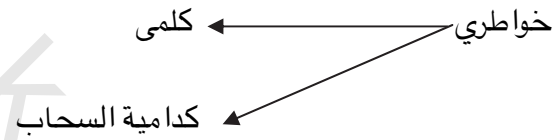

وليس شرطًا أن يكون التصوير الممتد من جنس واحد ، فقد تأتي استعارة يمتد بعدها تشبيه ، ثم استعارة وهكذا مثل قول الشاعر :

والبحر حفاق الجوانــب ضــائق كمدًا كصدري ساعة الإمساء [2]

- فالبحر خفاق . (استعارة مكنية) .
- والبحر ضائق كمدًا . (استعارة مكنية) .
- والبحر كصدري ساعة الإمساء (تشبيه) .

١- نفسه .
٢- نفسه .

obeikandl.com

يوضح ذلك الشكل التالي :

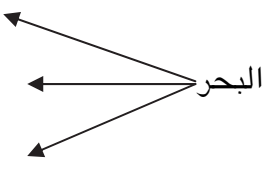

والذي لاشك فيه أن امتداد الصورة يكشف عن براعة الشاعر ومقدرته ، كما يبرز المشبه من خلال التشكيل وتنويع الصورة بما يحمله التشبيه من إيضاح للمشبه وبما تحمله الاستعارة من تجسيم وتشخيص للشيء المعنوي في صورة شيء ملموس.

٢- الصورة المتداخلة أو المركبة :

وهي التي يتداخل أجزاؤها فتكون الكلمة مشبهابه وفي الوقت نفسه مشبها مثل قول الشاعر بدر شاكر السياب[١] :

والنور تعصره المصابيح الحزاني في شحوب
مثل الضباب على الطريق
من كل حانوت عتيق
كأنه نغم يذوب
في ذلك السوق القديم

تأمل الصورة في قوله : النور تعصره المصابيح الحزانى ، تجد أن :

النور مشبه والمشبه به محذوف وبقيت لازمة من لوازمه تعصره المصابيح فالمصابيح مقام المشبه به ، والمصابيح نفسها مشبه والمشبه به محذوف دل عليه قول الشاعر الحزانى ، فالمصابيح كالإنسان .

١- ديوان السياب ج ١ قصيدة (السوق القديم) .

obeikandl.com

وقول الشاعر : حانوت عتيق كأنه نغم يذوب . الحانوت مشبه ، نغم مشبه به ونغم نفسها مشبه والمشبه به محذوف دل عليه قوله يذوب ، وكأنه يريد أن يقول (النغم كالسائل) .

فالصورة هنا متداخلة ويتضح ذلك من خلال الشكل التالي :

= (النور) مشبه ← (تعصره المصابيح) مشبه به

↓

مشبه (والحزانى) مشبه به .

= (حانوت عتيق) مشبه ← كأنه (نغم) مشبه به .

↓

مشبه (يذوب) مشبه به.

تداخلت الصورة وركبت فصارت (تعصره المصابيح) مشبها به ومشبهًا لما بعدها في الوقت نفسه .

وتداخلت الصورة حتى صارت كلمة (نغم) مشبهًا به ومشبها لما بعدها في الوقت نفسه .

وهذا التداخل من شأنه أن يعمق الصورة ويعطيها ثراء وجاذبية تدعو إلى التأمل والتفكير للوصول إلى المحتوى وتوضيح ما فيه من جوانب جمالية ودلالات والشاعر حين يحرص على تركيب الصورة وتداخلها بهذا الشكل يعطيها طرافة وحيوية ، ويدل على مقدرته الشعرية وتمكنه .

ولا شك أن للخيال دوره وللصورة أثرها في تشكيل القصيدة " وقد دلت التجارب على أن المناظر إذا عرضت على عين الخيال أو العقل كانت أجمل مما إذا

عرضت على العين الحسية ، وكلما قوي خيالنا قويت لذاتنا ، وقوة الخيال تصحب النواظر دائما وتكون عاملاً مهما في تفهيم الشيء وإيضاحه[١] .

٢- الصورة الكلية :

وهي التي تنتزع من عدة أبيات أو أسطر ، وتضم عناصر اللون والصوت والرائحة والحركة مثل قول الشاعر نزار قباني بعنوان " وشاية "[٢] :

أنا عنك ما أخبرتهم . . لكنهم
لمحوك تغتسلين في أحداقي
أنا عنك ما كلمتهم . . لكنهم
قرأوك في حبرى وفي أوراقي
للحب رائحة . . وليس بوسعها
أن لا تفوح . . مزارع الدراقِ

هذه الأبيات تمثل صورة كلية تضم عناصر يمكن أن نتبينها في :

اللـــون : في قوله : أحداق – مزارع – الدراق – حبر – أوراق .

الصوت : في قوله : أخبرتهم – قرأوك – كلمتهم .

الحركة : في قوله : لمحوك – تغتسلين .

الرائحة : في قوله : رائحة – تفوح- مزارع الدراق .

ويقول الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في قصيدة " الرحلة إلى الريف "[٣]:

محطة في أسفل المدينة
مسقوفة ، تضاء في نصف النهار

١- النقد الأدبي ، أحمد أمين ، ص ٥٩ .
٢- الأعمال الكاملة ، نزار ، نزار قباني .
٣- الأعمال الكاملة ، أحمد عبد المعطي حجازي .

opeikanal.com

مواكب المسافرين ضجة حزينة
وساعة تحصي عذاب الانتظار
وصفر القطار
إثا قلت أقدامه وسار ، ثم سار
لافتة تراجعت
صبية لم تستطع به اللحاق
شيعته في انكسار
وغادر المدينة
ترنح الضجيج في المدى
ثم ارتمى سكينة .

تتضح عناصر الصورة الكلية في :

اللـــون : في قول الشاعر : النهار- تضاء – لافتة .

الصوت : في قول الشاعر : ضجة – صفّر – الضجيج .

الحركـة : في قول الشاعر : تحصى – إنّا قلت – سار – تراجعت – شيعته – غادر – ترنحَّ – ارتمى .

والجدير بالملاحظة أن الشعر الحر قد أفسح المجال أمام الشعراء والمبدعين لابتكار الصورة وإثرائها بمزيد من الإيحاءات والدلالات ، حتى صار التصوير يحتل مساحة كبيرة في بنية القصيدة " لأن الصورة الفنية تركيبة وجدانية تنتمي في جوهرها إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع ومن ثم يبدو لنا في كثير من الأحيان أن الشاعر أو الفنان يعبث في صوره بالطبيعة وبالأشياء الواقعة ، وقد نطلق على هذا العبث لفظة (التشويه) فإذا الحقيقة الواقعة تبدو ناقصة أمامنا ،

obeikandl.com

وقد تبدو مزيفة ، غير أن الحقيقة أنه لا تشويه هناك ولا تزييف ، لأنه ليس من الضروري أن يكون عالم الوجدان مطابقًا لعالم الواقع ، أو أن يكون الذاتي تكرارًا للموضوعي بل الغالب أن يكون للذاتي واقعيته الخاصة ، وعندئذ حينما يحاول الفنان أن يصنع من الذاتي واقعيًا من خلال الصورة المحسوسة ، يبدو هذا الواقع الجديد مغايرًا للواقع القبلي المرصود " [1]

١- الشعر العربي المعاصر ، د . عز الدين اسماعيل ، ص ١٢٧ ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

obeikandl.com